العـــــــراقي

ربما يكون القدر هو الذي ساقني في هذا اليوم إلى محطة مترو المرج، حيث كنت أنتظر - بصحبة ابنتي الصغيرة ذات الأربع سنوات لألحق ميعاد طبيبها في معهد ناصر بمحطة المظلات - على المقعد المجاور. جلس بجواري رجل عراقي، عروبي مثقف وأصيل. نظر إلى ابنتي وأخرج لها «كيس ملبس» من النوعية الفاخرة، وبإحساس شفاف ومُفعَم بالعطف قال لي:

- شفاها الله وعافاها.

شكرته على هديته ورقَّة كلماته.

وقبل أن يسترسل في حديثه، سألته إن كان عراقي الجنسية أم إيرانيًّا؟

حينها احمرَّ وجهه وكأن «ثعباناً» لدغه، وقال لي:

إيراني؟! أعوذ بالله يا أخي. أنا عراقي.

اعتذرت له، فقبِل اعتذاري، وبدأ يتحدث:

- شوف يا أخي، إن العصبية والعنصرية والقبلية والانتماء لغير الوطن مفردات قبيحة ومقيتة، باتت تنخر في عظام بلدي الحبيب، بل الوطن العربي كله بشكل مُقنن ومدروس من أعداء هذه الأمة، التي كانت في وقت من الأوقات ملء السمع والبصر.

سألته عن سبب ألمه في محاولة بائسة مني لتخفيف الحزن والهم عنه، فقال لي بصوت حزين وعينين تغرغران بالدموع:

- إن الأخبار المشؤومة التي يطالعنا بها الإعلام العربي والأجنبي عن سيطرة تنظيم «داعش» الإرهابي على أكبر مدن العراق «الموصل وتكريت» في ظل حكومة يترأسها رجل ينتمي للمفردات التي أشرت إليها لَهُوَ أمر لايبعث على الاطمئنان يا أخي الكريم.

وأكمل:

- وحتى لا نظلم الجيش العراقي الباسل صاحب التاريخ العظيم الذي يتراجع أحيانًا أمام هؤلاء الإرهابيين؛ لا بد من الرجوع إلى الأسباب الحقيقية لما آلت إليه الأمور في بلادي.

- فلعل جميعنا يتذكر دخول الأمريكان والإنجليز في مقدمة التحالف الذى وَطِئَ أرضي المباركة.. لحظتها نصبوا حاكمًا عسكريًّا بغيضًا كارهًا للعرب والمسلمين على بغداد اسمه «بول بريمر».. هذا «البريمر – الحقير» كان يعرف جيدًا كيف يهدم تاريخ العراق، ويصنع بين مواطنيها حربًا أهلية مذهبية.

هنا استوقفت الرجل، وقلت له:

- نعم أتذكر..لقد جاء «بريمر» بمساعدة إيران، وأول ما دخل العراق أمر بتسريح جيشها وحل شرطتها!! وهذه كانت الخطوة الأولى في سيناريو المؤامرة الكبرى التي تعرض لها العراق الشقيق، ومنذ هذا التاريخ بدأنا نسمع عن سرقة آثار وكنوز بلدكم الحبيب وتهريبها إلى دول بعينها، وعلى يد مافيا معروفة للجميع، ومع مرور الوقت شاعت الفتنة بين السنة والشيعة، وبدأت بينهما حرب بغيضة حصدت مئات الآلاف من الأرواح البريئة.

قال محدثي العراقي – الراقي:

– برافو عليك، أنت يقظ للأحداث جيدًا.

ثم سألني عن طبيعة عملي، فأخبرته أنني صحفي. فرح الرجل، واستطرد في الحديث قائلاً:

– بعد ذلك توالت الأحداث، وشاهد جميعنا أهلنا يعذبون في سجن «أبو غريب» على يد الأمريكان وعملائهم من المرتزقة الإيرانيين أمثال المالكي ومرتضى الصدر و.... وتابعنا جميعًا كيف حطموا أسلحة الجيش العراقي، وباعوها «خردة»؛ ليشتروا مكانها أسلحة أمريكية جديدة، واليوم نتابع الرئيس الأمريكي باراك أوباما وهو يتعجب من ضعف الجيش العراقي الذى تآمر عليه سلفه «بوش الابن» ونظامه المجرم بعدم قدرته على مواجهة تنظيم دولة العراق والشام الإسلامية «داعش»!

قلت له والألم يعتصرني:

– يا أخي هون على نفسك، إن الحقيقة المُرة التي يجب التعامل معها في الملف العراقي هي في دعم الأمريكان لرئيس حكومة طائفي ساعد على تقسيم الشعب الشقيق إلى طوائف وأحزاب وملل، فكيف نتوقع الخير من عميل إيراني يحمل الجنسية العراقية استطاع أن يصنع مما تبقى من الجيش العراقي ذراعًا مسلحة ضمن أذرع الإمبراطورية الفارسية المنشودة لدولة «قُمْ» (أعلى سلطة دينية في طهران)؟

وأضفت:

– إن ممارسات رئيس الحكومة العراقية الشيعي ضد أشقائه السنة هي السبب الرئيسي في الأوضاع الحالية.. لقد نجح هذا البغيض وبامتياز في تأصيل ثقافة العداوة بين أبناء شعبه، عندما اتبع خطة استبعاد السنة من أية مناصب مهمة.. وفي المقابل شعرت العشائر السنية العراقية بحالة يأس وإحباط أدَّيَا إلى مصادمات خفية وعلنية مع المالكي وأتباعه.

ثم عاجلته بسؤالي عن الأخبار المتداولة في الإعلام عن ظهور عزة الدوري - نائب الرئيس العراقي الراحل صدام حسين - فقال لي:

- إن الحديث الآن عن ظهور عزة الدوري في الموصل والادعاء بقيادته لتنظيم «داعش» تحت اسم «جيش النقشبندية» لمواجهة نور المالكي، ثم تأكيد القبائل العراقية السنية بأنها ثورة سنية و«داعش» شوهتها، ثم ظهور مقتدى الصدر الذي دعا إلى تشكيل «سرايا السلام» لمواجهة «داعش»، لَهُوَ أمر ينذر بخطر شديد، وقد يدفعنا مجددًا إلى الدخول في حرب أهلية، تقضي على ما تبقى من العراق الحبيب.

وقبل أن نصل إلى محطة الشهداء بقليل، مفترق الطرق بيني وبين محدثي، حيث سيواصل هو طريقه إلى محطة المعادي، بينما سأغيِّر أنا اتجاهي إلى شبرا، طلب مني أن أناشد عقلاء الأمة وحكامها، وعلى رأسهم رئيسنا عبد الفتاح السيسي والملك عبد الله آل سعود آنذاك، وزعماء وأمراء وملوك الخليج من خلال مقالاتي وزملائي، التدخل السريع لوأد هذه الفتنة التي بدأت تطل برأسها في المنطقة، فقلت له:

- من عيوني حاضر، وصيتك في رقبتي ليوم الدين لعل وعسى.

جاءت محطة الشهداء، وفي أثناء وداعي له، نصحني بسماع أغنية للفنانة الرائعة جوليا بطرس عن الوطن العربي، تتساءل فيها:

- آاااه.. آاااه.. وين وين وين.. وين الملايين.. الشعب العربي وين.. الدم العربي وين.. الغضب العربي وين.. الشرف العربي وين.. ويييين..ويييين..ويين؟!

- ومنذ ذلك الحين وأنا أستمع إلى هذه الأغنية المُزلزلة الجميلة.. انتهى.